١٦- باب
ما جاء في كثرة الحلف

وَقَوْلِ اللهِ - تَعَالَى -: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ [المائدة:٨٩].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ**»(١). أَخْرَجَاهُ.

وَعَنْ سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهَ بِضَاعَتَهُ؛ لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ**»(٢). رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَينٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ** - قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **صحيح**: أخرجه الطبراني في «الصغير» (٨٢١)، والبيهقي في «الشعب» (٤٥١١)، من حديث سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني.

أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا - **ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُوفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمْ السِّمَنُ**»[1].

وَفِيهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ**». وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ[2].

○○○

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب آية، وأربعة أحاديث، وأثرا.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

* * *

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٦٥٠) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٥٣٥).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٦٥٢) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٥٣٣).

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

تأكيد حفظ اليمين وعدم الإكثار منها، وأنَّ الاستهانة بالحلف بالله قَدْح في كمال التَّوحيد، كما أنَّ تعظيم الحلف بالله من كمال التَّوحيد.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

سبق الكلام على مباحث اليمين في «باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله».

* * *

٦٢- باب
ما جاء في ذمة الله، وذمة نبيه

وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] الآيَةَ.

عَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا. فَقَالَ: «اغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ -، فَأَيَّتَهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ؛ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ - تَعَالَى -، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْأَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ.

وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ؛ فَإِنَّكُمْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ.

وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللَّهِ أَمْ لَا»[1]. رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

○○○

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب آية، وحديثا.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

* * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٣١).

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

أنَّ من كمال توحيد الله وتعظيمه أن تُحفظ العهود ويوفى بها، وأنَّ نقضها وعدم احترامها نقص في تعظيم الله وتوحيده.

وهذا من جنس الباب الذي قبله «باب ما جاء في كثرة الحلف».

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: المراد بالذمة والعهد:

تُطلق الذِّمَّة في اللغة على معان:

المعنى الأول: العَهد. وهو في اللغة: الوصِية، يُقال: عهِدَ إليه يعهَد، إذا أوصاه[1].

وهذا المعنى هو المراد هنا، أي: ما يكون بين المتعاقدين في العهود والمواثيق.

والعهد لا يكون إلا من ذي ذِمَّة؛ ولذا سمِّي العهد ذِمَّة.

والعهد نوعان:

أولا: عهد بين العبد وربه. وقد أمر الله بالوفاء بهذا العهد كما في آية الباب، وأثنى على من اتصف بذلك فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ...﴾، ثم قال في بيان جزائهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩ - ٢٢].

ومن عهد الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، ومن عهد النبي ﷺ على الأمة أن يؤمنوا به، ويتبعوه في شريعته.

---

(١) ينظر: «مقاييس اللغة» (٤/ ١٦٧).

فيا أيها المسلم، بينك وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عهد، وبينك وبين رسوله ﷺ عهد، فلا تنقض العهد، ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١].

ثانيا: عهد بين العِباد. وقد يكون بين شخصين أو قبيلتين أو دولتين ونحو ذلك.

المعنى الثاني: الأمَان. ومنه تسمية المُعاهَد بالذِّمِّي، وفُسِّرَ قوله ﷺ: «**ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ**»(١)، أي: الأمان.

المعنى الثالث: الضَّمان. فإذا قلتَ: في ذمَّتي كذا؛ يكون المعنى في ضماني.

○○○

المبحث الثاني: حكم الوفاء بالعهد:

يجب الوفاء بالعهد، لقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾[النحل: ٩١].

وجاء نفي الدين عَمَّن لا عهد له، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: «**لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ**»(٢).

والتَزَمَه رسول الله ﷺ في جميع عهوده، ومن ذلك: وفاؤه بالوثيقة التي عقدها لليهود عندما هاجر إلى المدينة(٣)، وصلح الحديبية(١)، وغيرهما.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣١٧٩)، ومسلم (١٣٧٠)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (١٢٣٨٣) وفي مواضع أخرى، وابن حبان (١٩٤)، وصححه الألباني.

(٣) ينظر: «السيرة النبوية الصحيحة» للدكتور أكرم العمري (١/ ٢٧٢).

(١) ينظر: صحيح البخاري (٢٧٠١)، ومسلم (١٧٨٣).

ونقض العهد محرَّم قطعا، ولا يصحُّ من مؤمن - أبدا - للآية السابقة، ولحديث: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**»(١).

ونقض عهد الله - تعالى - من أسباب الخسران، كما في قوله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ**﴾ [البقرة: ٢٧].

ونقض العهد يُعَدُّ من الغدر الذي وُعِد فاعلُه بالفضيحة على رؤوس الأشهاد، كما جاء في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «**إِذَا جَمَعَ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ، فَقِيلَ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ**»(٢).

ونقض عهد الله وعهد رسوله ﷺ أعظم جُرما من نقض عهد المكلَّفين؛ ولذا قال ﷺ في الحديث: «**وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ**

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٤) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٥٨)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٦١٧٧)، ومسلم (١٧٣٥) واللفظ له.

أَصْحَابِكَ؛ فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ»[1].

تُخْفِروا ذممكم: أي: تنقضوا عُهودكم.

وكذا أرشدهم ﷺ إذا طلبوا منهم النزول على حكم الله ألا يجيبوهم، بل ينزلونهم على حكمهم هم واجتهادهم؛ خشية أن لا يُصيبوا حكم الله - تعالى -، فينسِبُون إلى الله ما هو خطأ.

* * *

(١) تقدم تخريجه.

٦٣- باب

ما جاء في الإقسام على الله

عَنْ جُنْدُبِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ القَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ، أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»(٢).

○○○

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب حديثا و أثرا.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

* * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٢١).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٩٠١)، و أحمد (٨٢٩٢)، وصححه الألباني.

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

الإقسام على الله - تعالى - له صور تختلف أحكامها باختلافها؛ ولذا لم يقطع المؤلف بحكم عام.

ومنها - مما يتعلق بموضوع الكتاب - أن يكون الحاملُ له الإعجابَ بالنفس، وتحجير فضل الله - عز وجل -، وسوء الظن به تعالى؛ فهذا فيه سوء أدب مع الله، ويخل بتوحيد العبد وتعظيمه لربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: معنى الإقسام على الله - تعالى -:

الإقسام: مصدر أقَسَم يُقْسِم، إذا حَلَف.

والحلف له عدة أسماء، منها: اليمين، والأَلِية، والقسم، وكلها بمعنى واحد(١).

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٢٦]، أي: يحلفون، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

والإقسام على الله معناه: الحلف على الله بأمر من الأمور، مثل: والله، ليفعلن الله كذا، أو: والله، لا يفعل الله كذا.

○○○

المبحث الثاني: صور الإقسام على الله، وأحكامها:

الإقسام على الله - تعالى - له ثلاث صور(٢):

---

(١) ينظر: «لسان العرب» (١١/ ١٦٩).

(٢) ينظر: «القول المفيد» (٢/ ٤٩٧).

الصورة الأولى: أن يقسم بما أخبر الله به ورسوله خبرا ثابتا. فهذا لا بأس به، وهذا دليل على يقينه بما أخبر الله به ورسوله، مثل: والله، ليشفِّعن اللهُ نبيَه في الخلق يوم القيامة، ومثل: والله، لا يغفر الله لمن أشرك به.

الصورة الثانية: أن يقسم على ربه لقوة رجائه ويقينه، وحسن الظن بربه. فهذا جائز؛ لحديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَسَرَتِ الرُّبَيِّعُ - وَهِيَ عَمَّةُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - ثَنِيَّةَ جَارِيَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَرَ بِالْقِصَاصِ، فَقَالَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ - عَمُّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -: لَا، وَاللَّهِ، لَا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَا أَنَسُ، كِتَابُ اللَّهِ الْقِصَاصُ**». فَرَضِيَ الْقَوْمُ وَقَبِلُوا الْأَرْشَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**»(١).

ويدل عليه - أيضا - حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ**»(٢).

الصورة الثالثة: أن يكون الحامل له هو الإعجاب بالنفس، وتحجر فضل الله - عز وجل -، وسوء الظن به تعالى. فهذا محرم، وفيه سوء أدب مع الله، وهو وشيك بأن يُحبِط اللهُ عمل هذا المقسِم، وهو المقصود هنا.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٧٠٣) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٦٧٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٢٢).

ولفظ الحديث الذي أشار إليه المؤلف: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟! فَقَالَ: وَاللَّهِ، لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ. فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ**». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ[1].

* * *

(١) تقدم تخريجه في أحاديث الباب.

٦٤- باب
لا يُسْتَشْفَعُ بالله على خلقه

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نُهِكَتِ الْأَنْفُسُ، وَجَاعَ الْعِيَالُ، وَهَلَكَتِ الْأَمْوَالُ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ؛ فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَى اللَّهِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**سُبْحَانَ اللَّهِ! سُبْحَانَ اللَّهِ!**»، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ.

ثُمَّ قَالَ: «**وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللَّهُ؟ إِنَّ شَأْنَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ**»[١]. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

ooo

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب حديثا واحدا.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

* * *

(١) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (٤٧٢٦)، والبزار (٣٤٣٢)، والطبراني في «الكبير» (١٥٤٧)، وضعفه الألباني والأرناؤوط.

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

بيان أن الاستشفاع بالله على أحدٍ من خلقه قبيحٌ ومنكَر وسوء أدب مع الله؛ لأن مرتبة الشافع أقلُّ من مرتبة المشفوع عنده، وهذا قدح في جناب التوحيد.

وهذه الألفاظ وما قبلها فيها سوء ظن بالله - تعالى -، وتنقُّص لمقام الربوبية وعظمة الله - تعالى -.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

معنى الاستشفاع بالله وحكمه:

الشفاعة: هي التوسُّط للغير بجلب منفعة له أو دفع مضرة عنه.

يقال استشفع بالشيء، أي: جعله شافعا له، كمن يستشفع برجل عند الأمير.

وذكر الأعرابي في الحديث ثلاثة أمور:

الأمر الأول: قال: «فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ»، وهذا حسن لا بأس به.

الأمر الثاني: قال: «فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ»، وهذا قبيح، وهو محل الشاهد؛ ولهذا أنكره ﷺ ونزَّهَ ربه عن ذلك بالتسبيح فقال: «**سُبْحَانَ اللَّهِ! سُبْحَانَ اللَّهِ!**»، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ.

الأمر الثالث: قال: «وَنَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ».

قال الشيخ ابن عثيمين: «أي: نطلب منك أن تكون شافعا لنا عند الله، فتدعو الله لنا، وهذا صحيح»[1].

والحديث ضعفه الألباني، وكذا العصيمي في «الدر النضيد».

وقال الشيخ ابن عثيمين: «هذا الحديث فيه ضعف، ولكن معناه صحيح»[2].

---

(١) «القول المفيد» (٢/ ٥٠٩).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٥١١).

فائدة:

عن أبي وَجْزَةَ يزيد بن عبيد السُّلمِي قال: لما قَفَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِن غَزْوَةِ تَبُوكَ أَتَاهُ وَفْدٌ مِن بَنِي فَزَارَةَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْع رَبَّك أَنْ يُغِيْثَنا، وَاشْفَعْ لَنا إِلَى رَبِّكَ، وَلْيَشْفَعْ رَبُّكَ إِلَيْكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَيْلَكَ، هَذَا أَنا شَفَعْتُ إِلَى رَبِّي، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ رَبنَا إِلَيْهِ؟! لَا إِلَه إِلَّا اللهُ الْعَظِيْمُ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهِيَ تئِطُّ مِنْ عَظَمَتِهِ وَجَلالِهِ، كَمَا يئِطُّ الرَّحْلُ الْجَدِيْدُ**»[1].

* * *

(١) **ضعيف**: أخرجه أبو الشيخ في كتاب «العظمة» (٢٥٣)، وقال محققه: مرسل ضعيف.

٦٥- باب
ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد، وسده طرق الشرك

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشِّخِّيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا. فَقَالَ: «**السَّيِّدُ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -**»، قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا. فَقَالَ: «**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**»(١). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا! فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ؛ أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ - عزَّ وجلَّ -**»(٢). رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

○○○

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٨٠٦)، وأحمد (١٦٣٠٧)، وصححه الألباني.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (١٣٥٢٩)، وابن حبان (٦٢٤٠)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٠٠٦)، وصححه الأرناؤوط والألباني في «غاية المرام» (١٢٧).

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب حديثين.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

❋ ❋ ❋

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

بيان عناية النبي ﷺ بالتوحيد، وحمايته لجنابه بتعظيم أمره، والتحذير مما ينقصه أو يخدشه، بسد كل طريق أو مدخل يوصل إلى الشرك.

وسبق للمصنف أن عقد في الكتاب «باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك»، وهو الباب الحادي والعشرون، وهو قريب من هذا.

وكأن ذلك الباب في الوسائل الفعلية، وهذا في الوسائل القولية، ولو جُمِعا لكان أحسن.

وفرَّق بعضهم بين البابين، بأنه قال هناك: «جناب التوحيد»، وهنا: «حمى التوحيد»، وجناب التوحيد معناه: جانب التوحيد، والفرق بينهما أن الجانب جزء من الشيء، وأما الحِمى فهو ما حَوْل الشيء، فتقول جانب الأرض الأيمن، وهو جزء منها، وتقول: حمى الأرض، وهو ما حولها منفصلا عنها[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التوحيد أصلَفُ شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه. فأدنى شيء يخدِشُه ويدنسه ويؤثر فيه»[1].

---

(١) ذكره الشيخ الفوزان في «إعانة المستفيد» (٢/ ٣٠٨).

(١) «الفوائد» ص١٩٤.

أرأيت لو امتلك رجلٌ جوهرة نفيسة من الأحجار الكريمة؛ كيف سيحافظ عليها؟.

لا ريب أنَّه سيحميها من نسمات الغبار، ويضعها في حِرز محكم، ويحميها من كل خدش أو شائبة.

أنت – أيها الموحد – لديك ما هو أثمن من تلك الجوهرة النفيسة، فاحفظ توحيدك من كل مؤثِّر مهما صغُر في عينك، فتوحيدك كنز، وهو أعز ما تملك.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

سبق الكلام على مباحث هذا الباب. ومن المناسب - أيضا - الحديث هنا عن مبحثين:

المبحث الأول: حكم مخاطبة المخلوق بالسيادة:

لفظ «السيد» يرجع معناه إلى الرياسة والسياسة لمن تحت يده، وحُسن التدبير له، ويُطلق على: الربِّ، والمالك، والمعظَّم، وزعيم القوم ورئيسهم، والزَّوج، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾[يوسف: ٢٥].

وكثيرا ما يسمع قول البعض: «السيد فلان»، و«السيدة فلانة»، و«سيداتي سادتي»، فيقال:

إطلاق السيادة على المخلوق له صورتان:

الصورة الأولى: أن يطلق معرفا بـ«أل» (السيد):

و«السيد» من أسماء الله - تعالى -؛ لقوله ﷺ «**السَّيِّدُ اللَّهُ**»[1]، ومعناه: المالك، والمولى، والرب.

---

(١) تقدم تخريجه. وممن أثبت هذا الاسم لله - تعالى -: الشيخ ابن عثيمين في «القواعد المثلى» ص ١٦، وقد تقدَّم طرف من ذلك في الباب الثالث والخمسين (باب لا يقول: عبدي وأمتي).

فالله هو الذي له حقيقة السيادة المطلقة وكمالها، وأما غيره فسيادته نسبية إضافية تكون في شيء محدود، وفي زمن محدود، ومكان محدود.

وجاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في معنى اسم الصمد، قال: «هو السيد الذي كمل في جميع أنواع السُّؤدد»(١).

ويلاحظ أن المنحرفين في باب توحيد العبادة يطلقون هذا الاسم ويلحَظُون معناه في مُعظَّمِيهم، فيقولون: «السيد البدوي»، و«السيد عبد القادر الجيلاني».

وإطلاق السيد على المخلوق على وجه العلمية (أي: تسميته بهذا الاسم) سبق بيان حكمه في «باب احترام أسماء الله - تعالى - وتغيير الاسم لأجل ذلك»، ونقل الخلاف في ذلك، وأن الأحوط والأظهر عدم الجواز.

وأما إن كان من باب الوصف، فيجوز بقيدين:

الأول: أن يكون أهلا لذلك:

فلا يخاطَبُ به الكافر والمنافق على سبيل التعظيم لما في الحديث: «**لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدٌ؛ فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدًا، فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ - عَزَّ وَجَلَّ -**»(٢).

قال في «عون المعبود»: «قوله: (**فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ - عَزَّ وَجَلَّ -**)، أي: أغضبتموه؛ لأنه يكون تعظيما له، وهو ممن لا يستحق التعظيم»(٣).

---

(١) أخرجه ابن الشيخ في «العظمة» (٩٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٩٨).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٩٧٧)، و أحمد (٢٢٩٣٩)، وصححه الألباني.

(٣) «عون المعبود» (١٣/ ٢٢١).

قال ابن علان: «النهي عن مخاطبة الفاسق والمبتدع بـ«سيد» ونحوه مما يدل على تعظيمه؛ لأن المعنى فيه تعظيم من أهانه الله»(١).

قال النووي: «والمنهي عنه استعماله على جهة التعاظم لا التعريف»(٢).

الثاني: ألا يُخشى من الغلو فيه.

الصورة الثانية: أن يطلق منكَّرا أو مضافا:

فيقال: «سيد»، و«سيد القبيلة»، فهو جائز بالقيدين السابقين. وجاء في مواضع من الكتاب والسنة، منها:

قوله تعالى: ﴿**فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ**﴾ [آل عمران: ٣٩]. وقوله - عز وجل -: ﴿**وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ**﴾ [يوسف: ٢٥].

وقال الرسول ﷺ: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ** ...»(٣). وقال ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٤). وقال ﷺ: «**سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَمْزَةُ**»(٥).

---

(١) «دليل الفالحين» (٨/ ٥٤٢) بتصرف يسير.

(٢) نقله عنه المناوي في «فيض القدير» (٤/ ١٥٢).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٧٨).

(٥) **صحيح**: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٠٧٩)، والحاكم في «المستدرك» (٢٥٥٧)،

وسبق حديث: «**لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ**»(١).

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدَنا»(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكذلك تحرم التسمية بـ(سيد الناس) و(سيد الكُل)، كما يحرُم (سيد ولد آدم)؛ فإن هذا ليس لأحد إلا لرسول الله ﷺ وحده فهو سيد ولد آدم، فلا يحِل لأحد أن يطلِق على غيره ذلك»(٣).

○○○

المبحث الثاني: حكم مدح المخلوق:

عن المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ، فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمِ التُّرَابَ**»(٤). وعن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِيَّاكُمْ وَالتَّمَادُحَ؛ فَإِنَّهُ الذَّبْحُ**»(٥).

من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٧٤).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٧٥٤).

(٣) «تحفة المودود» ص١١٥.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٣٠٠٢).

(٥) **حسن**: أخرجه ابن ماجه (٣٧٤٣)، وأحمد (١٦٨٣٧)، وحسنه الألباني.

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا يُثْنِي عَلَى رَجُلٍ وَيُطْرِيهِ فِي مَدْحِهِ، فَقَالَ: «**أَهْلَكْتُمْ - أَوْ قَطَعْتُمْ - ظَهْرَ الرَّجُلِ**»(١).

وعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: أَنَّهُ ذُكِرَ عِنْدَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا مِنْ رَجُلٍ، بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَفْضَلَ مِنْهُ فِي كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَيْحَكَ! قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ**» مِرَارًا يَقُولُ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ، لَا مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ فُلَانًا، إِنْ كَانَ يُرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ، وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَدًا**»(٢).

وحمل أهل العلم هذه الأحاديث الواردة في التحذير والتنفير على صورتين:

الأولى: إذا كان في المدح مبالغة ومجازفة.

الثانية: إذا خشي على الممدوح من الإعجاب والفتنة.

وبوَّب النووي في «رياض الصالحين» «باب كراهة المدح في الوجه لمن خِيف عليه مفسدة من إعجاب ونحوه، وجوازه لمن أمن ذلك في حقه»(٣).

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٦٦٣)، ومسلم (٣٠٠١).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٦٦٢)، ومسلم (٣٠٠٠) واللفظ له.

(٣) «رياض الصالحين» ص ٤٩٤.

وقال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والضابط أن لا يكون في المدح مجازفة، ويؤمنَ على الممدوح الإعجابُ والفتنة»[1].

قال بعض السلف: إذا مُدح الرجل في وجهه فليقل: «اللّٰهم اغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيرا مما يظنون»[2].

* * *

(١) «فتح الباري» لابن حجر (١٠/ ٤٧٨)، وانظر: «شرح النووي على مسلم» (١٨/ ١٢٦).

(٢) ينسب هذا القول لأبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، كما في: «أسد الغابة» (٨٢٦).

٦٦- باب ما جاء في قول الله – تعالى –: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٦٧] الآية.

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ؛ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿**وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ**﴾ [الزمر: ٦٧][(١)] الآيَةَ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَنَا اللَّهُ»[(٢)].

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ»[(٣)].

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦).

(٢) أخرجها مسلم في صحيحه (٢٧٨٦)، ولفظه: «**ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ**».

(٣) أخرجها البخاري في صحيحه (٧٥١٣).

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «**يَطْوِي اللَّهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ السَّبْعَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟**»(١).

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «**مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرَضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ**»(٢).

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَنْبَأَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ**»(٣).

قَالَ: وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**ما الْكُرْسِيِّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ**»(٤).

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ خَمْسُ مِئَةِ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٨٨).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٠/ ٢٤٦).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ٥٣٩).

(٤) **صحيح**: أخرجه ابن حبان (٣٦١)، و أبو الشيخ في «العظَمة» (٢/ ٥٨٧)، والطبري في تفسيره (٤/ ٥٣٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٠٩).

عَامٍ، وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ»(١). أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيٍّ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ زِرٍّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ.

وَرَوَاهُ - بِنَحْوِهِ - الْمَسْعُودِيُّ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَهُ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -، قَالَ: «وَلَهُ طُرُقٌ»(٢).

وَعَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟**» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسُ مِئَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسُ مِئَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْعَرْشِ بَحْرٌ، بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ**» أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ(٣).

○○○

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٢٤٢)، والطبراني في «الكبير» (٨٩٨٧)، وصححه الألباني في «مختصر العلو» رقم (٤٨).

(٢) «العلو للعلي الغفار» ص ٤٦.

(٣) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابن ماجه (١٩٣)، والحاكم (٣١٣٧) واللفظ له، وضعفه الألباني.

هذا الحديث مشهور عند أهل العلم بـ«حديث الأوعال»؛ لأن في بعض ألفاظه ذكرَ ثمانية أوعال.

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب آية، وخمسة أحاديث، وأثرين.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

❋ ❋ ❋

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

هذه خاتمة الكتاب، وما أحسن ختم الكتاب بهذا الباب؛ فإنه لمَّا قرر توحيد العبادة، وما يُكَمِّله أو يناقضه أو يقدح فيه، أتى بهذه الخاتمة التي هي كالموعظة للقلب؛ ليبين لك أن هذا المعبود عظيم جد عظيم، فيخشع القلب ويوجل خضوعا، ويتوجه لربه بالعبادة من خالص قلبه راغبا راهبا.

فهذا الباب كالوقود الذي يحرك القلب للعبادة والتوحيد، فمن عرف قدْر الله عظَّمه، وعرف شأنه فتوجَّه إليه بالعبادة. فكيف وأنت ما خُلقت إلا للعبادة؟! فلتجعل أوقاتك لهذه الغاية التي خُلِقتَ لها.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: عظمة الله - تعالى -:

إن تعظيمَ الله - عَزَّ وجَلَّ - مِن أجلِّ أعمال القلوب التي يتعين ترسيخها وتزكيةُ النفوس بها. واللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الكريم العظيم، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء.

تأمل آيات الله وإعجازه في الكون، في كتاب مقروء، وصفحات مشرقة منظورَة؛ ليمتلئَ قلبُك إجلالا وعظمة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ﴿**فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [يس: ٨٣].

انظر إلى الشمس والقمر يدوران، والليل والنهار يتعاقبان، بل انظر إلى تكوين نفسك وتركيب جسمك، من ذا الذي جعله بهذا التركيب والنظام العجيب، ﴿**وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾ [الذاريات].

فيـــــا عجبـــــا كيـــــف يُعصـــــى الإلهُ

أم كيـــــف يَجْحَـــــدُه الجاحِـــــدُ

وفِي كـــــل شيء لـــــه آيـــــةٌ

تـــــدل عـــــلى أنـــــه واحـــــدُ[1]

(١) ينسب البيتان إلى أبي العتاهية، كما في «الشعب» للبيهقي (١٠٥).

إن الإيمان بالله مبني على التعظيم والإجلال، قال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ [الشورى: ٥]، قال المفسرون: «يتشققن مِن عظمة الله - عز وجل -»(١).

منزلة التعظيم تابعة للمعرفة، فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب في القلب، وأعرف الناس به أشدُّهم له تعظيمًا وإجلالا، وقد ذم الله - تعالى - من لم يعظِّمْه حقَّ عظمتِه، فقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، قال المفسرون: «ما لكم لا تعظِّمون الله حقَّ عظمته»(٢).

وعن ابن عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ ذَاتَ يَومٍ عَلَى المِنْبَرِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، وَرَسُول اللهِ ﷺ يَقُولُ هَكَذَا بِيَدِهِ، وَيُحَرِّكُهَا، يُقْبِلُ بِهَا وَيُدْبِرُ: «يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ: أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ»، فَرَجَفَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ الْمِنْبَرُ، حَتَّى قُلْنَا: لَيَخِرَّنَّ بِهِ(٣).

---

(١) تفسير القرطبي (١٦/ ٤).

(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ٢٩٥).

(٣) تقدم تخريجه.

إنه الله العظيم الأعظم، ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾[الرحمن: ٢٩]، يغفر ذنبا، ويفرِّج هما، ويُنَفِّس كربا، ويرفع قوما، ويضع آخرين، يُحيي ميتا، ويميت حيا، ويجيب داعيا، ويشفي مريضا، ويُعز من يشاء، ويذل من يشاء، سبحانه ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾.

هذه الأرضُ مَن بسطها؟ والسماءُ مَن رفعها؟ والجبالُ مَن أرساها؟ والطيرُ مَن سوَّاها؟ والنهرُ مَن أجراه؟ والليلُ مَن كساه؟ إنه الله الذي خلق كل شيء وسواه.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله - تعالى -: «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ**»(١).

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ؛ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ! وَاللَّهِ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ**»(٢).

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤)، وصححه الألباني.

(٢) **حسن**: أخرجه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وحسنه الألباني.

تعظيم الله في القلوب داعٍ إلى مراقبته والخوف منه والعمل بمرضاته، تعظيم الله في القلوب طريق للتقوى، قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] قال المفسرون: «أي: فخافوه واخشوه»(١).

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِئَةِ عَامٍ**»(٢).

وقال ﷺ، عن ربه تعالى: «**حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»(٣). وسُبُحات وجهه هي: نوره وجلاله وبهاؤه(٤).

يـــا مـــن يـــرى مَـــدَّ البعُـــوضِ جناحَهـــا

في ظلمـــــةِ الليـــــلِ البَهِـــــيم الأليَـــــلِ

ويـــــرى نِيـــــاطَ عُروقِهـــــا فِي نَحرِهـــــا

والمُـــــخَّ في تلـــــكَ العِظـــــامِ النُّحَّـــــلِ

---

(١) تفسير السعدي، ص ٩٦٥.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٧٢٧) واللفظ له، والطبراني في «الأوسط» (١٧٠٩)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) شرح النووي على مسلم (٣/ ١٤).

أُمْـــــنُنْ عـــــليَّ بتوبـــــةٍ تمحُـــــو بهـــــا

مـــــا كـــــانَ منِّـــــي في الزَّمـــــانِ الأوَّلِ[1]

لمَّا خفَّ تعظيم الله في القلوب، هانت المعصية عند كثير من الناس.

يقول أحد السلف: «لا تنظر إلى صِغَر الخطيئة، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت»[2].

ومن أعظم مظاهر تعظِيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: تعظيم أمره ونهيه.

ومن مواضع التعظيم: الركوع كما قال ﷺ: «**أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَ**»[3].

○○○

المبحث الثاني: العرش والكرسي:

العرش هو مخلوق عظيم خلقه الله - عز وجل -، ثم استوى عليه استواء يليق بجلاله وعظمته.

ووُصِف في القرآن بثلاث صفات:

---

(١) تنسب هذه الأبيات لأبي العلاء المعري، كما في «البداية والنهاية» (١٥/ ٧٥٢).

(٢) ينسب إلى أويس القرني، كما في: «تفسير التستري» ص ١٤١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٤٧٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الأولى: العظيم. قال تعالى: ﴿**ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ**﴾ [النمل: ٢٦].

الثانية: الكريم. قال تعالى: ﴿**فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ**﴾ [المؤمنون: ١١٦].

الثالث: المجيد. قال تعالى: ﴿**ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ**﴾ [البروج: ١٥]، وعلى قراءة حمزة والكسائي: ﴿**ٱلْمَجِيدِ**﴾ بالخفض؛ صفة للعرش.

واختُلِف في أول مخلوقات الله - تعالى -، والأقرب أنه العرش، وهو قول الجمهور؛ لقوله ﷺ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**»(١).

والعرش فوق الفردوس الأعلى من الجنة؛ لقوله ﷺ: «**فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعْلَى الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ**»(٢)، فهو فوق المخلوقات كلها.

وتحته ماء، قال تعالى: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ**﴾ [هود: ٧]، والله فوق العرش قد استوى عليه استواء يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٢٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والكرسي هو موضع قَدَمَي الرحمن - عز وجل - على أصح الأقوال فيه، وجاء تفسيره بذلك عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[1].

وهو بين السماء السابعة والماء، كما في أثر ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ»[2].

وهذه إشارة إلى هذين المخلوقين العظيمين؛ لمناسبة ذكرهما في أحاديث الباب، وتفصيل الكلام عليها في كتب العقائد.

وبهذا نكون قد انتهينا من الكلام على شرح أبواب هذا الكتاب المبارك، ونسأل الله - عزَّ وجلَّ - أن يتقبل منَّا ومنكم، وأن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح، وأن يختم لنا بتوحيده.

ووصيتي لنفسي ولمن يقرأ هذه الأسطر أن نعتني بهذا العلم (علم التوحيد) عناية بالغة، تعلُّما وتعليما ومدارسة ومذاكرة وتحقيقا وبحثا ودعوة؛ لأنه سبيل النجاة والفلاح، وله من المنزلة والشأن ما سبق بيانه في شرح أبواب الكتاب، مما لا حاجة إلى إعادته.

---

(١) ينظر: «التوحيد» لابن خزيمة (١/ ٢٤٨)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٢٤٠٤)، و«المستدرك» (٣١١٦).

(٢) تقدم تخريجه.

فإياك إياك ممن يُزَهِّد فيه، وإياك من عوارض الكسل والفتور، بل جاهد نفسك، واغتنم عمرك، فالأمر عظيم، والسفر طويل، وسلعة الله غالية.

وبالله التوفيق والله أعلم. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.